الطريقة الأنثربولوچية لدراسة المجتمع

للدكتور احمد أبو زيد

ليست هذه دراسة تفصيلية فى أصول مناهج البحث الأنثربولوچى وفلسفتها ، وإن كنا سنتعرض فيها - بطريق غير مباشر - لبعض مشكلات المنهج . وإنما غرضنا هنا هو توضيح بعض النقط التى لا تزال غامضة عن طبيعة الدراسات الأنثربولوچية ، وإبراز الخصائص والسمات الجوهرية التى يجب توافرها فى أى بحث اجتماعى حتى يمكن اعتباره دراسة فى الأنثربولوچيا الاجتماعية أو علم الانسان الاجتماعى Social Anthropology ولنضع المشكلة فى صورة بسيطة ساذجة : لماذا نعتبر بعض الكتابات مثل دراسة الأستاذ ايفانز بريتشارد (أستاذ الأنثربولوچيا الاجتماعية فى أكسفورد والأستاذ السابق لعلم الاجتماع بالجامعة المصرية القديمة) عن النوير فى السودان الجنوبى ، أو كتاب المرحوم الأستاذ رادكليف براون (الذى كان أستاذا للاجتماع بهذه الكلية حتى عام ١٩٤٩) عن الاندمان فى المحيط الهندى ، أو كتاب الدكتور بريستيانى (الذى كان مدرسا للأنثربولوچيا بجامعة القاهرة — فؤاد الأول حينذاك) عن الكبسجيس [١] فى شرق افريقية دراسات فى علم الانسان الاجتماعى ، بينما لانستطيع أن ننظر هذه النظرة إلى بعض الكتابات الأخرى الهامة مثل كتاب لين عن الحياة الاجتماعية فى مصر أو كتاب ديبوا عن الهند [٢] ، رغم أن هذه الطائفة الأخيرة من الكتب ، أو بعضها على الأقل ، تمتاز بتفصيلات دقيقة وعرض وافٍ جذاب للعادات والتقاليد وأنماط السلوك فى تلك المجتمعات بشكل لايتوافر فى كثير من الدراسات الأنثربولوچية المعتمدة ؟

(١) Evans-Pritchard (E.E.): *The Nuer*. (Oxford, 1940); Radcliffe-Brown (A.R): *The Andaman Islanders*. (Free Press, 1948); Peristiany (J.G): *The Social Institutions of the Kipsigis*. (Routledge. 1939).

(٢) Lane (E.W): *The Manners and Customs of the Modern Egyptians*. (Every man's, 1936); Dubois (Abbé J.A.): *Hindu Manners, Customs and Ceremonies*. (Oxford, 1947).

للاجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نحدد أولا مجال الأنثربولوجيا الاجتماعية ونزيل بعض ما علق بموضوعها وغايتها من غموض وإبهام وتضارب .

(١)

يرتبط مفهوم الأنثربولوجيا الاجتماعية فى كثير من الأذهان بدراسة الشعوب البدائية ، وارتكازا على هذا الفهم نشأت التفرقة فى بعض الجامعات بين الأنثربولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع ، على أساس أن علم الاجتماع يتناول دراسة ظاهرات ومقومات الحياة الاجتماعية الأكثر تطورا أو تقدما ، ومشكلات المجتمع المتمدين ، والمجتمع الأوروبى على الخصوص . ويرجع هذا الفهم إلى حد كبير إلى نفس نشأة الأنثربولوجيا الاجتماعية . فقد كان العلم يقصر اهتمامه ، بل ولا يزال يهتم اهتماما خاصا ، بالمجتمعات البدائية والمتخلفة ، وكان الأنثربولوجيون الأوائل يعتمدون فى الأغلب فى دراساتهم على كتابات وتقارير الرحالة والمبشرين عن تلك الشعوب ، وذلك قبل أن يبدأ الجيل التالى من العلماء بدراسة القبائل والمجتمعات البدائية دراسة على الطبيعة تعتمد على الملاحظة المباشرة . وقد يكون السبب فى تركيز الاهتمام على المجتمعات البدائية هو — كما يقول إيفانز بريتشارد — أن تلك المجتمعات آخذة فى الزوال بالتدريج نتيجة لازدياد اتصالاتهم بالعالم الخارجى ، وما يترتب على ذلك فى العادة من غزو ثقافة الرجل الأبيض المتحضر أو الثقافة الغربية واكتساحها الثقافات الأصلية المتوطنة ، وبالتالى هدم أسس التماسك الاجتماعى فى تلك المجتمعات . فالمجتمعات البدائية تمر الآن بمرحلة تطور هائل تتغير بموجبه العادات والتقاليد والقيم والنظم الأصلية تغيرا جوهريا ؛ وعلماء الأنثربولوجيا يشعرون لذلك بأن الواجب يقتضيهم العمل على تسجيل ملامح هذه الحياة وحفظها للأجيال التالية فى شكل دراسات علمية وافية قبل أن تزول تماما . ولكن قد يكون سبب الانصراف إلى دراسة هذه الشعوب السهولة النسبية التى يستطيع بها الباحث ملاحظة العادات الغريبة غير المألوفة[1] ولكن إلى جانب هذا هناك اعتبارات أخرى منهجية تتعلق بنفس غاية الأنثربولوجيا الاجتماعية . تحتم قصر الجهود على دراسة المجتمعات البدائية

(1) Evans-Pritchard : Social Anthropology: p. 9.

وخاصة فى المراحل الأولى من حياة هذا العلم الناشىء ، وأعنى بهذه الاعتبارات النظرة التكاملية الكلية الشاملة التى ينظر بها الأنثربولوچى إلى المجتمع ، والتى يحاول تحقيقها فى دراسته . فأى ثقافة من الثقافات تؤلف نسقا متكاملا ، ومهمة الأنثربولوچى هى دراسة النظم الاجتماعية المختلفة على أنها أجزاء فى هذا النسق . وليس من شك فى أنه من الأسهل رؤية المجتمع البدائى كوحدة كلية كما أن من الأسهل ملاحظة تداخل النظم الاجتماعية وتفاعلها أحدها مع الأخرى فى المجتمعات البدائية البسيطة عن ملاحظة ذلك فى المجتمعات المتحضرة المعقدة . فالمجتمع البدائى يمتاز بأنه أكثر بساطة فى بنائه الاجتماعى وأكثر تجانسا ؛ فهو أصغر فى المساحة وأقل فى عدد السكان وفى تشعب العلاقات الاجتماعية التى يمكن أن تقوم بين أفراده ، كما أنه يمتاز ببساطة النظام الاقتصادى وقلة التخصص المهنى أو حتى انعدامه ، وسذاجة الآلات والأدوات التى يعتمد عليها (١) .

ولكن هذا لم يمنع على أى حال من أن تكون هناك دراسات أنثربولوچية عن مجتمعات أكثر تقدما وتعقدا . وبأيدينا الآن دراسات ممتازة عن بعض المجتمعات الإقليمية فى الهند والصين واليابان وإيرلندا وأسبانيا وكندا ومصر والولايات المتحدة(٢) ؛ كما أن هناك دراسات أخرى كثيرة جدا لم تنشر بعد عن بعض تلك المجتمعات الإقليمية فى تركيا وفرنسا واليونان وقبرص ؛ وأستطيع أن أضيف إلى هذه القائمة من الأبحاث غير المنشورة دراستى عن النظم الاجتماعية فى الواحات الخارجة ؛ وأخيرا تلك الدراسة التى نالت بها صاحبتها درجة الدكتوراه فى الأنثربولوچيا الاجتماعية فى أكسفورد فى العام الماضى وتناولت تحليل البناء الاجتماعى لمحلات سلفردج Selfridge's ، وهى من أكبر المحلات التجارية فى لندن .

(١) Evans-Pritchard : Inaugural Lecture: pp. 3—4,

(٢) من أهم هذه الدراسات الكتب التالية : Dube (S. C.): *Indian Village*, (London, 1955); Fei (H): *Peasant Life in China*, (London, 1943); Embree (J.F.): *A Japanese Village* (London, 1946); Arensberg (C.M.) and Kimball (S.T): *Family and Community in Ireland*, (Harvard, 1948); Pitt-Rivers (J.A.): *The People of the Sierra*, (London 1954); etc., etc...

قلنا إن الأنثربولوجيا الاجتماعية تدرس النظم الاجتماعية السائدة فى أى مجتمع كوحدة متكاملة متماسكة . ولكن ألا تعطينا كتابات لين وديبوا وأمثالهما صورة كاملة شاملة عن المجتمعات التى تعرض لها ؟ إن كتاب « المصريون المحدثون » لا يكاد يغفل ناحية من نواحى النشاط الاجتماعى فى مصر فى العصر الذى كتب فيه ؛ فهو يعرض لنا فى فصوله المائة والعشرين (عدا المقدمة والتذييلات) مسائل كثيرة متنوعة مثل خصائص المصريين وطباعهم وطبيعة بلادهم ، وأحوالهم المنزلية والاجتماعية والاقتصادية ، ويتتبع الأطوار المختلفة التى يمر بها الفرد منذ يولد حتى يموت ، كما يعطينا وصفا تفصيليا لمعتقدات والشعائر الدينية وللسحر والشعوذة والاحتفالات والمهرجانات المختلفة ، وغير ذلك .

وكتاب ديبوا القيم يصف لنا فى صفحاته التى تزيد على السبعمائة صفحة كثيرا جدا من ملامح الحياة الاجتماعية فى الهند . ففى القسم الأول يتكلم عن نظام الطوائف الهندية على العموم بكل أقسامها وتفريعاتها المعقدة ، ويبين العلاقات بين أقسام الطائفة الواحدة من جهة وتلك التى تنظم الأوضاع بين مختلف الطوائف من جهة أخرى ، كما يعرض قواعد السلوك التى تنظم العلاقات بين الأفراد بحسب فوارق السن والجنس والمركز الاجتماعى ، ويفصل القول فى القيم الخلقية والجمالية والاقتصادية السائدة فى كل طائفة ، ويتكلم عن تنظيم الحياة المنزلية وعن العلاقة بين الرجل والمرأة وعن نظام الزواج والقرابة وعن القيود والتحريمات المفروضة على أنواع معينة من الطعام والشراب ، وغير ذلك . ويخصص ديبوا القسم الثانى من كتابه لدراسة طائفة البراهمة بالتفصيل ؛ بينما يتناول القسم الثالث مسائل الدين عامة والمعتقدات والمعابد والآلهة وأنواع العبادات وخاصة عبادة الحيوان ، ثم يبين العناصر الدينية فى النظم الإدارية والقضائية . وواضح أن هذه هى نفس الموضوعات التى يتطرق اليها علماء الأنثربولوجيا الاجتماعية فى أبحاثهم وكتاباتهم . ولكن كتابات الرحالة والمبشرين ، وكذلك كتابات الأنثربولوجيين الأوائل فى القرن التاسع عشر والسنين الأولى من هذا القرن كانت تتميز بأنها مجرد

سرد وصفى للعادات والتقاليد ، أى المظاهر الخارجية للثقافة السائدة فى المجتمع المدروس ، دون أى محاولة جدية للتحليل — إن كان ثمة تحليل على الإطلاق ، ودون محاولة ربطها بعضها ببعض أو توضيح العلاقة بينها . وتختلف الدراسة الأنثربولوچية المعاصرة عن ذلك فى أنها تهتم بتبين وتحليل التشابك والترابط بين النظم الاجتماعية وتفاعل هذه النظم بعضها مع بعض . فمن العبث الذى لا طائل تحته محاولة عزل أى نظام اجتماعى ودراسته على حدة بعيدا عن بقية البناء الاجتماعى . وأى نظام اجتماعى ، سواء كان نظام القرابة أو النظام السياسى أو الاقتصادى أو السحر أو الدين ، لن يمكن فهمه إلا بإرجاعه إلى النظم الأخرى وبالنسبة لهذه النظم ، وذلك لمعرفة وظيفة هذا النظام ، أى الدور الذى يؤديه فى المحافظة على تماسك النسق الاجتماعى كله . وأى دراسة أنثربولوچية لن تعتبر دراسة علمية صحيحة إلا اذا بينت علاقة أى نظام بسائر النظم الأخرى ، وبالتالى مكانه من النسق الاجتماعى . ولم تقتصر على مجرد السرد والوصف .

ولنضرب مثلاً نبين به الفرق بين الوصف البسيط للظاهرات الاجتماعية والدراسة التكاملية الصحيحة .

فى الفصل الثامن والعشرين من كتابه « المصريون المحدثون » يتكلم لين عن « الموت والشعائر الجنائزية Death and Funeral Rites » فيتناول بالوصف الخطوات التى يقوم بها الناس حين يدخل أحدهم فى دور الاحتضار ، ويتابع كل العادات والأفعال التى تتعلق بتهيئة الجسد للدفن ثم تشييع الجنازة ، ويصف لنا عملية الدفن كما يصف القبر ، ويتكلم عن معتقدات الناس عن حياة الروح بعد الموت ، وغير ذلك من مسائل . وفى مجال وصفه للقبر والدفن يقول : « ان حفرة القبر تكون على العموم من الاتساع بحيث تكفى لدفن أربعة أجساد أو أكثر . وحين يراد دفن الذكور والإناث جميعا فى نفس الحفرة — وهذه ليست العادة الشائعة المتبعة — يقام حاجز ليفصل أجساد أحد الجنسين عن الآخر[1] » . أما الباحث الأنثربولوچى فلن يقف عند حد هذه الملاحظة ، بل سيرى فى هذه العادة ولا شك انعكاسا لطبيعة العائلة

(1) Lane : *op. cit.*, p. 528.

فى مصر وتنظيمها وتماسكها كوحدة قرابية واقتصادية وسياسية متميزة . إذ أنه سيلاحظ فى نفس الوقت أن أفراد العائلة وحدهم هم الذين يدفنون فى نفس القبر . كذلك سوف يهتم بدراسة درجة القرابة بين الأفراد الذين يباح دفنهم فى القبر الواحد، وسيرى حينئذ أنهم جميعاً ينتمون فى الأغلب الى العَصَبَة القريبة كالإخوة مثلاً أو الأب وأبنائه . وسوف يظهر له أن هناك ترتيبا فى أحقية الدفن ، بمعنى أنه يأتى بعد العصبة القريبة أعضاء العصبة الأقل قربا والذين يلونهم مباشرة مثل أبناء العمومة ، ثم أفراد العصبة الأكثر بُعدا مثل أبناء العمومة من الدرجة الثانية وهكذا . وقد يرى فى ذلك تدليلا على اختلاف قوة الروابط العائلية التى تقوم فى الأصل على مبدأ العصبة وتدرجها . بل إنه قد يقارن بين هذه الروابط من ناحية وتدرج الالتزامات السياسية مثل واجب الأخذ بالثأر أو المساهمة فى دفع الدية ، والالتزامات الاقتصادية كوجوب الإنفاق والمساعدة وقواعد الوراثة والتوريث وما إلى ذلك من الناحية الأخرى . وقد يلاحظ الباحث الأنثربولوجى أيضا أنه فى كثير من الأحيان حين تموت المرأة المتزوجة فإنها تدفن فى مدافن عائلة أبيها وليس فى مدافن عائلة زوجها . فالزواج لم يفقدها شخصيتها القديمة ولم يقطع علاقاتها تماما بعائلتها الأصلية التى ترتبط بها بروابط العصبة ، ولم يحرمها من الانتساب إلى الأب بل تظل تحمل اسمه ، ويكون لها الحق فى أن ترثه كما أنها قد ترث وتورث بعض أفراد عصبتها فى حالات معينة . فروابط العصبة ، أو روابط القرابة فى سلالة الذكور . تظل قائمة فعالة حتى بعد الزواج ، رغم أن المرأة تنتقل بالزواج من بيت أبيها إلى بيت الزوج . ومن هذا لابد أن يتطرق الباحث إلى دراسة مشكلة التعارض بين مبدأ انتقال الزوجة إلى بيت الزوج patrilocality ورابطة القرابة الأبوية patrilineality، وما يفرضه كل من المبدأين من واجبات والتزامات وحقوق . ولكن الباحث سوف يلاحظ أيضا أنه فى بعض الحالات تدفن المرأة المتزوجة فى قبر أهل الزوج ، وأن هذا يحدث فى الأغلب حين يكون مضى على الزواج مدة طويلة أنجبت المرأة أثناءها ذكورا بلغوا مرتبة الرجال ؛ ففى مثل هذه الأحوال تدفن المرأة (الأم) حيث سيدفن أبناؤها . وسيرى فى ذلك رمزا واضحا على أن المرأة تصبح عضوا فى عائلة الزوج ليس لمجرد قيام رابطة الزواج وإنما لإنجاب الأبناء الذكور الذين سيحملون اسم عائلة

الزوج ويحافظون على استمرارها فى الوجود . فالمرأة تدعى (نكير) فى بعض أنحاء الصعيد وفى الواحات الخارجة مثلا مادامت لم تنجب أبناء ذكورا . وعلى الرغم من أن الناس يعترفون هناك بمبدأ انتقال الزوجة إلى بيت الزوج وأهله بعد الزواج فإن هذا المبدأ لا يوضع فى كثير من الأحيان موضع التنفيذ إلا حين تنجب المرأة ذكرا بالفعل . فالزواج يتم فى هذه الحالات فى بيت أهل الزوجة ،ويعيش الزوج هناك حتى تلد الزوجة ولداً هو الذى يسهل لها مهمة الانتقال إلى بيت عائلة الزوج .

ومع أن الاتجاه العام فى الدراسات الأنثربولوجية فى القرن الماضى كان ينحو نحو الدراسة الوصفية البحتة . فإن بعض العلماء الأوائل فى ذلك القرن كانوا يدركون وجود العلاقة القوية بين كل نظم المجتمع وتشابك الظاهرات الاجتماعية وتفاعلها بعضها مع بعض ، ومع ذلك لم يحاول واحد منهم تحليل هذه العلاقات وتتبعها بالدرس . فريفرز Rivers مثلا يعترف صراحة ، بأن الحياة الدينية والاجتماعية عند التودا تؤلف كلها نسيجا معقدا من الأفعال والممارسات المتداخلة بعضها فى بعض بشكل وثيق محكم ، إلى حد أننى بمجرد أن أبدأ فى فحص أى مظهر واحد من مظاهر حياتهم كنت أحصل على معلومات وافية تتصل بنواح أخرى مختلفة كل الاختلاف . (١) ولكن بدلا من أن يحلل هذه العلاقات ، كما يفعل العلماء المحدثون ، كان ريفرز يضيق بذلك التداخل أو الترابط الذى كان يعوقه عن مهمته الأصلية وهى فصل كل نظام اجتماعى على حدة وإبرازه كوحدة لها كيانها الذاتى المتميز . فقد كان ريفرز وغيره من العلماء فى القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن يعتقدون أن المنهج السليم فى الأنثربولوجيا الاجتماعية يتلخص فى وصف الوقائع والأحداث والعادات وصفا دقيقا ، ثم تقديم نظرية خاصة يبتكرها الباحث ابتكارا ويحاول أن يفسر بها الوقائع المشاهدة والنظم المدروسة دون أن تكون هذه النظرية مترتبة بالضرورة على تلك الوقائع والمشاهدات(٢).

(١) Rivers (W. H. R.) : *The Todas*, p. 10.

(٢) Fortes (M) : "Analysis and Description in Social Anthropology" p. 2.

وعلى العموم ، فالخاصية الأساسية المشتركة بين كل الدراسات الانثربولوجية الآن هي محاولة إظهار هذه الناحية التكاملية في المجتمع . وأياً ما تكون هذه المجتمعات المدروسة ، وأياً ما تكون العناوين التي تظهر هذه الدراسات تحتها فإنها جميعا تتحدث عن موضوعات بعينها : البيئة ؛ نظام القرابة والزواج ؛ النظام السياسي والضبط الاجتماعي ؛ النظام الاقتصادي ؛ القيم الروحية والخلقية ؛ المعتقدات بما فيها السحر والدين . وقد يختلف ترتيب هذه الموضوعات كما يتفاوت مدى التركيز على موضوع دون غيره من بحث لآخر ، ولكنها كلها تتوافر ، ولا بد ، بشكل ما في البحث .

وتمتاز الدراسة التكاملية عن المحاولات الأولى في القرن التاسع عشر وكذلك عن كتابات لين وديبوا وغيرهما ، بأن لها اتجاها عاما محددا تسير فيه ، كما أنها تعالج مشكلات محددة . وهذا معناه ضرورة وجود فرض نظري يوجه البحث . والواقع أن كل دراسة أنثربولوجية الآن هي عبارة عن مناقشة لنظرية اجتماعية أو ناحية معينة منها إلى جانب تسجيلها للوقائع والمشاهدات الملاحظة في المجتمع . فكتاب ايفانز بريتشارد عن النوير وكتاب بريستياني عن الكبسجيس دراستان في النظرية السياسية ، وكتاب مالينوسكي عن الأرجونوتس [1] وكتاب فيرث عن الصيادين في الملايو [2] بحثان في النظرية الإقتصادية ، وكتاب رادكليف براون عن الأندمان وكتاب بت ريفرز عن السيرا في الأندلس وكتاب ايفانز بريتشارد عن الأزاندى (نيام نيام) [3] دراسات في نظرية القيم وهكذا ، رغم أنها جميعا لا تغفل النهج التكاملي . فالوقائع والأحداث ليس لها أي معنى أو أهمية في حد ذاتها ، وإنما تكتسب معناها الاجتماعي حين توضع في ضوء نظرية عامة . والرأي السائد الآن هو أن الدراسة الأنثربولوجية – على حد قول ايفانز بريتشارد – دراسة مشكلات ؛ « ونحن نطلب إلى طلبة الأنثربولوجيا أن يدرسوا

(١) Malinowski (B.): *Argonauts of the Western Pacific.* (London, 1922. Third impression 1950).

(٢) Firth (R.): *Malay Fishermen.* (London. 1946).

(٣) Evans-Pritchard (E.E.): *Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande.* (Oxford, 1937).

المشكلات لا الشعوب » (١) . وما دام الأمر كذلك . فيجب ألا نتوقع من الباحث الأنثربولوجي الآن أن يسجل لنا كل الوقائع والأحداث التي يجمعها أثناء دراسته الحقلية ، كما لا يجب أن ننتظر من أي دراسة أنثربولوجية أن تكون سجلا حافلا وافيا مفصلا عن تلك الوقائع والظاهرات . فالذي لا شك فيه هو أن الدراسة الأنثربولوجية الآن لا تعرض لنا إلا جانبا يسيرا جدا من المعلومات التي يجمعها الباحث عن القبيلة أو القرية التي يدرسها، والمحك الأخير الذي يتحكم في اختيار ما يذكره في دراسته من تلك المعلومات هو مدى تماشيها واتفاقها مع الاتجاه العام للدراسة ، ومدى نفعها في تفهم المشكلة التي أثارتها هذه المعلومات ذاتها في ذهن الباحث (٢).

وقد ترتب على ذلك كله أن الأبحاث الأنثربولوجية تكتب الآن على مستوى معين من التجريد . فالدراسة التحليلية البنائية لن تتيسر إلا حين يرتفع الباحث في تفكيره عن مستوى الحقائق والمشاهدات العينية الحرفية ، أو الوقائع المحسوسة ostensive facts إذا أبيح لنا أن نتكلم هنا بلغة العلم الطبيعي .

وتتفاوت درجة التجريد من بحث لآخر تفاوتا شديدا . ويرجع هذا التفاوت إلى مدى قدرة الباحث على التحرر من قيود تلك الوقائع البادية الملموسة ، أي عن الأحداث والأفعال الاجتماعية الحرفية وعن الأفراد الذين تصدر عنهم هذه الأفعال ، ثم إلى مدى اتساع دائرة العلاقات التي يدرسها وتنوع هذه العلاقات . فكلما اتسعت هذه الدائرة وتنوعت ارتفع مستوى التحليل البنائي ، وبالتالي مستوى التجريد . صحيح إن معظم الدراسات التي نشرت حتى الآن لا تستخدم في تحليلاتها إلا عددا قليلا من المفهومات والتصورات المجردة ، بل إن هذه التصورات نفسها ليست على درجة عالية من التجريد لأنها في الواقع لا تعدو أن تكون ألفاظا ومصطلحات تمثل زمرا اجتماعية أو العلاقات بين هذه الزمر مثل كلمة « مجتمع » أو « قبيلة » أو « بطن » أو « ثقافة » . بيد أن مفهومات وتصورات أخرى أكثر تجريدا بدأت تجد

(١) Evans-Pritchard : *Social Anthropology*: p. 87.

(٢) Ibid. pp. 81—88: Fortes: *op. cit.*, pp. 2—3: Kaufmann (F): *Methodology of the Social Sciences*, pp. 67- 77.

طريقها إلى الأبحاث الحديثة التي ظهرت في السنوات الأخيرة مثل تصور « البناء الاجتماعي » و « الزمان البنائي » و « المكان البنائي » وغيرها ؛ كما بدأ العلماء يفسرون العلاقات بين الزمر الاجتماعية المختلفة في ألفاظ وحدود وتصورات أكثر تجريدا . ولعل أشهر هذه التصورات وأكثرها استخداما هي فكرة الانشقاق والالتحام fission and fusion التي أدخلها ايفانز بريتشارد الى ميدان الأنثربولوجيا واستخدمها في تحليله البنائي لنظام القرابة والنظام السياسي والتوزيع الإقليمي ونظام طبقات العمر عند النوير [1] . ويلاحظ هنا أن ايفانز بريتشارد وتلاميذه وأتباعه في أكسفورد . وهم يمثلون حركة قوية جدا في الأنثربولوجيا الاجتماعية — لم يعودوا يهتمون اهتماما كبيرا بالعلاقات بين الأفراد أو حتى بين الزمر الاجتماعية الصغيرة القابلة للتغير السريع . فهم يرون أنه لكي تبلغ الدراسة مستوى عاليا من التجريد والتحليل البنائي لا بد من التركيز على دراسة الجماعات التي تتميز بدرجة عالية من التماسك ، والتي تثبت قدرتها على البقاء والاستمرار والصمود ضد عوامل التغير لأطول وقت ممكن ، بحيث تحتفظ على مر الأجيال بكيانها وهيكلها العام رغم تغير الأفراد الذين يؤلفونها ؛ كما هو الحال في البدنة lineage مثلا أو طبقة العمر age-set . فالعائلة عند ايفانز بريتشارد ليست جماعة بنائية « لأنه ليس ثمت علاقات ثابتة ودائمة في العائلة كجماعة ، كما أن العائلة تموت بموت أفرادها . وقد تظهر عائلات جديدة ، ولكن العائلات القديمة تكون قد زالت وفنيت الى الأبد » [2] . ولذلك فإن كتابه عن النوير (الذي يعترف فيه بأنه كتبه على مستوى من التجريد أعلى من المستوى المألوف في الدراسات الأنثربولوجية ، والذي يمثل ثورة حقيقية في البحث الأنثربولوجي من هذه الناحية) ، لا يكاد يعرض للعائلة إلا في حالة الاستشهاد وضرب الأمثلة للتوضيح .

(1) Evans-Pritchard : *The Nuer*, pp. 262 66. Firth : *Elements of Social Organization*, pp. 26- 27; Nadel (S.F.) ; *The Foundations of Social Anthropology*, pp. 80—82; Whitehead (A.N.) *Adventures of Ideas*, p. 196

(2) Evans-Pritchard : Ibid, p. 262

تتطلب الدراسة التكاملية فى الأنثربولوجيا الاجتماعية أن يقصر الباحث اهتمامه على مجتمع واحد معين أو على ثقافة واحدة بالذات ، بغية دراستها دراسة شديدة التركيز للتعرف على كل النظم الاجتماعية فى ذلك المجتمع أو تلك الثقافة ، ثم تحليل أنواع العلاقات القائمة بين هذه النظم . ولن يتحقق هذا المطلب على أكمل وجه إلا باتصال الباحث اتصالا مباشرا بالمجتمع الذى يدرسه ؛ وهذا معناه الدراسة الحقلية field work التى تعتبر شرطا جوهريا فى الأبحاث الأنثربولوجية الآن . فالأنثربولوجيا الاجتماعية تعتمد فى المقام الأول على الملاحظة المباشرة ، وإن كان ذلك لايمنع الباحث من الاستعانة بالكتابات الأخرى التى تكون قد ظهرت عن ذلك المجتمع . والالتجاء إلى الدراسة الحقلية تطور حديث نسبيا فى تاريخ الأنثربولوجيا . فقد كان الأنثربولوجيون الأوائل يعتمدون ، كما قلنا من قبل ، على تقارير وكتابات الرحالة والمبشرين ؛ ولكن هؤلاء كانت تنقصهم ولا شك الخبرة والمران الكافيان لضبط الملاحظة ؛ كما أن معظم ملاحظاتهم كانت تنصب على العادات الغريبة غير المألوفة دون غيرها ؛ أى أنهم لم يكونوا — من وجهة النظر العلمية البحتة — يعرفون كيف يلاحظون أو ماذا يلاحظون . فالشيء الذى يسترعى الانتباه حقا هو أن العدد الأكبر من علماء الأنثربولوجيا فى القرن الماضى من أمثال فريزر Frazer وماكلينان McLenan والأب شميت F. Schmidt وغيرهم من أئمة التفكير الأنثربولوجي النظرى ، لم يخطر ببالهم قط أن يزوروا إحدى تلك القبائل البدائية التى كانوا يكتبون عنها من بُعد . وما يقال عن هؤلاء يصدق على دوركيم Durkheim الذى أثرت نظرياته تأثيرا كبيرا جدا فى تطور وتبلور تفكير رادكليف براون ومدرسته . أما النفر القليل من هؤلاء الأنثربولوجيين الأوائل مثل تايلور Tylor وباستيان Bastian الذين قاموا برحلات كثيرة زاروا أثناءها عددا كبيرا من الشعوب والقبائل البدائية ، فلم يقم واحد منهم بدراسة منهجية مركزة intensive لأى شعب واحد منها على وجه التخصيص .

ويرجع أكبر الفضل فى التنبيه الى أهمية الدراسات الحقلية إلى بعثة جامعة كمبردج فى أواخر القرن الماضى (١٨٨٨) لدراسة جزر مضايق توريس Torres Straits Islands الواقعة بين غينيا الجديدة وشمالى استراليا (١) .

وتتوقف الدراسة الحقلية الناجحة على أمرين : الأول يتعلق بحجم المجتمع المدروس ، والثانى بالمدة التى يمضيها الباحث الأنثربولوجى فى ذلك المجتمع . والاتجاه السائد الآن هو دراسة المجتمعات الصغيرة المحددة تمام التحديد . فكلما صغر حجم المجتمع وتحددت رقعته ومساحته وتميزت معالمه وحدوده ، سهل على الباحث تتبع نظمه الاجتماعية ودراسة نسقه الاجتماعى كوحدة متميزة واضحة . ولذا كانت معظم الأبحاث التى بأيدينا الآن تتناول شعبا واحدا أو قبيلة واحدة أو مدينة صغيرة أو قرية أو حتى مصنعا أو محلا تجاريا . فايفانز بريتشارد مثلا يدرس النوير على حدة كما يدرس الأزاندى على حدة ، ولم يحاول أن يقوم بدراسة حقلية تشمل كل مجموعة الشعوب النيلية التى يندرج تحتها النوير والأزاندى . وريستيانى يدرس قبيلة الكبسجيس الذين لا يتعدى عددهم الثمانين ألفا ولا يدرس مجموعة الشعوب السودانية أو حتى القبائل الناطقة بلغة الناندى . (وهى أحد فروع هذه المجموعة) التى ينتمى اليها الكبسجيس . وبت ريفرز يكتفى بدراسة مدينة Alcalá de la Sierra التى لا يتجاوز سكانها ثلاثة آلاف شخص ، ولا يدرس أسبانيا كلها أو حتى الأندلس حيث تقع المدينة . واخيرا نجد چون إمبرى يقصر دراسته الحقلية على قرية سوهى مورا Suye Mura التى يبلغ تعدادها ١٦٦٣ نسمة ، ولم يدرس اليابان كلها أو إحدى الجزر اليابانية الصغيرة .

واختيار الوحدة الاجتماعية التى يركز فيها الباحث دراسته الحقلية يعتبر من أشق المسائل التى يقابلها كل أنثربولوجى فى بداية عمله . فالأساس الأول فى التعيين والاختيار هو وجود نسق اجتماعى واضح يستطيع الباحث تحليله ودراسة العلاقات المتداخلة المتشعبة التى يتألف منها . بيد أن كل زمرة

(١) من الطريف أن نلاحظ أنه لم يكن بين أعضاء هذه البعثة أحد من علماء الأنثربولوجيا المتخصصين وإن كانت نتائج البعثة من الناحية الأنثربولوجية ودراسة العادات والتقاليد هناك كانت باهرة رغم أنهم لم يكونوا يقصدون دراستها فى أول الأمر . فقد كان رئيس البعثة هادون A. C. Haddon من علماء الحيوان ، ومن أعضائها ريفرز الذى كان طبيبا وعالما نفسانيا . وسليجمان C. G. Seligmann الذى تخصص فى الباثولوجيا والأمراض المتوطنة . وسليجمان هو المسئول الأول عن توجيه ايفانز بريتشارد إلى دراسة الشعوب والقبائل النيلية .

اجتماعية أياً كان حجمها، لها نسقها الخاص ؛ كما أن ما نعتبره نسقاً متكاملاً في وحدة اجتماعية معينة قد يؤلف جزءاً من نسق أوسع في وحدة اجتماعية أكبر. وأذكر أنني حين بدأت دراستي للواحات الخارجة في خريف عام ١٩٥٣ كنت بين أمرين : إما أن أقصر دراستي الحقلية على قرية واحدة من القرى الخمسة الصغيرة التي تتألف منها الواحة وأدرس البناء الاجتماعي لتلك القرية فقط ، وإما أن أقوم بدراسة القرى الخمسة كلها على اعتبار أنها تؤلف وحدة جغرافية واجتماعية وأن لها نسقاً اجتماعياً عاماً ، رغم الفواصل المكانية والصحراء الشاسعة التي تعزل كل قرية عن القرى الأخرى . وعلى أي حال فلا بد للباحث الأنثربولوجي من أن يهتم في دراسته بأمرين : الأول هو تحليل نسق العلاقات الاجتماعية في داخل المجتمع المعين الذي يدرسه ؛ والثاني هو تبيين إلى أي حد وكيف يتأثر ذلك النسق من العلاقات بتكوينه جزءاً من بناء اجتماعي أكبر(١).

ويقابل مسألة تحديد الوحدة الاجتماعية تحديد المدة الزمنية للبحث . والعادة أن فترة الدراسة الحقلية تستغرق عامين أو أكثر . وعلى أي حال فلا بد من أن يمضي الباحث عاماً كاملاً على الأقل في المجتمع الذي يدرسه حتى يستطيع التعرف على كل مظاهر الحياة وأنواع النشاط الاجتماعي على مدار السنة . والمعلومات التي يحصل عليها الباحث أثناء إقامته في ذلك المجتمع تؤلف — وحدها في الأغلب — مادة كتابته ودراسته التحليلية البنائية . فالمجتمعات البدائية التي لا يزال علماء الأنثربولوجيا يولونها الجانب الأكبر من اهتمامهم ليس لها تاريخ مكتوب ، ولهذا يكتفي الباحث بإعطاء صورة تكاملية للمجتمع في تلك الفترة المحدودة التي استغرقتها دراسته الحقلية . ولهذا أيضاً أسقط معظم العلماء التاريخ من اعتبارهم كوسيلة تساعد على فهم الظاهرات الاجتماعية التي تقع تحت ملاحظتهم المباشرة ، وإن كان ذلك لا يمنع من الاستعانة بالتاريخ كلما تيسر ذلك ، وخاصة في دراسة المجتمعات الأكثر تقدماً . ولا يعني استخدام التاريخ في ميدان الأنثربولوجيا البحث عن الأصول الأولى للظاهرات أو النظم الاجتماعية كما كان يعتقد علماء القرن التاسع عشر. فلم يعد الأنثربولوجيون المعاصرون يهتمون بنشأة النظم الاجتماعية وتطورها ، وكل ما يهتمون به هو — كما قلنا من قبل — وظيفة أي نظام في البناء الاجتماعي ، أي الدور الذي يؤديه ذلك النظام نحو تماسك المجتمع .

(١) Pitt-Rivers op. cit., p. 208.

وهكذا يتضح لنا أن ميدان البحث الأنثربولوجي أصبح على العموم أضيق بكثير الآن عما كان عليه في القرن التاسع عشر . فبينما كان علماء القرن الماضي يحاولون البحث مثلا عن المعنى الاجتماعي للدين في إطلاقه وبدون أي تحديد أو تقييد . يلمس الباحث الأنثربولوجي الآن المعنى الاجتماعي لنظام الديني في قبيلة من القبائل ، أو وظيفة عبادة الأسلاف عند أحد الشعوب الإفريقية التي يتميز نسقها الاجتماعي في نفس الوقت بوجود نظام البدنة الكبيرة المنقسمة الى بدنات أصغر segmentary lineage system [1] كذلك بدلا من أن يحاول دراسة تطور العائلة في جميع أشكالها ويفترض لذلك شكلا معينا يعتقد أنه هو الأصل الأول الذي تطورت عنه سائر الأشكال المعروفة ، ويلجأ في سبيل ذلك إلى التخمين أو إلى ما يسمى بالتاريخ الظني conjectural history الذي لا يرتكز في الأغلب على حقائق ثابتة ، فإنه يكتفي الآن ببحث مشاكل محددة معينة صغيرة مثل دراسة أنماط السلوك وتأثرها بفوارق السن والجنس وعلاقة ذلك كله بالمركز الاجتماعي والوظيفة الدينية وتركيز السلطة في أحد المجتمعات الصغيرة التي يقوم فيها البناء الاجتماعي كله على أساس العصبة وروابط القرابة الأبوية . وهكذا . والمعتقد أن هذا التحديد خليق بأن يوصل الى نتائج مثمرة وأنه أقرب الى روح العلم الصحيح من تعميمات القرن التاسع عشر التي كانت تطلق بقصد تفسير ظاهرات عامة . والرأي السائد الآن عند الأنثربولوجيين هو أننا نستطيع أن نصل إلى معرفة أوفى وأصدق عن طبيعة المجتمع البشري في عمومه بدراسة مجتمعات معينة دراسة مركزة تعتمد على الملاحظة المباشرة ، بقصد التعرف على طبيعة بعض المشكلات المحددة ومحاولة حلها .

وكانت النتيجة الطبيعية من كل هذا الاهتمام بالدراسة الحقلية المقيدة بقيود المكان والزمان أن أصبح عندنا الآن عدد كبير جدا من الأبحاث المتعلقة بقبائل أو مجتمعات صغيرة متفرقة في جميع أنحاء العالم . وقد نشر بعض هذه الأبحاث بالفعل ، ولكن الغالبية العظمى لا تزال في شكل مخطوطات تمتلكها أصحابها أو تحتفظ بها معاهد تدريس الأنثربولوجيا . وفي مكتبة معهد الأنثربولوجيا الاجتماعية Institute of Social Anthropology بأكسفورد

(١) Evans-Pritchard: Social Anthropology, p. 91

مثلاً مالا يقل عن ثلاثين بحثا من هذا القبيل . يتعلق معظمها بقبائل وشعوب إفريقية . والذى ينقصنا الآن هو الدراسة المقارنة التى تستخدم هذه المعلومات الهائلة التى بأيدينا للوصول إلى تعميمات كلية . فالواقع أن الدراسات المقارنة لا تزال مهملة فى ميدان الأنثربولوجيا إهمالا كبيرا على الرغم من أن رادكليف براون لا يرى مانعا من تسمية الأنثربولوجيا الاجتماعية باسم علم الاجتماع المقارن Comparative Sociology (١) . ولكن هذه مسألة أخرى نرجو أن نخصص لها بحثا منفصلا .

(١) يقصد راد كليف براون هنا علم الاجتماع كما يفهمه دوركايم وأتباعه وتلاميذه فى فرنسا . والفارق الوحيد بين علم الاجتماع بهذا المفهوم والأنثربولوجيا الاجتماعية ينحصر فى طريقة دراسة المجتمع . فبينما يهتم علماء الاجتماع الفرنسيون بالدراسة النظرية التى تصطبغ بصبغة فلسفية ، يفضل علماء الأنثربولوجيا مواجهة الوقائع المحسوسة . وقد سبق أن ذكرنا أن دوركايم ، وكذلك معظم العلماء الفرنسيين ، لم يقوموا بأى دراسة حقلية . وقد بدأ بعض شباب العلماء فى فرنسا يتجهون أخيرا إلى الدراسات الحقلية . وهؤلاء جميعا من تلاميذ موس Mauss وليفى ستروس Lévi-Strauss ، ومن أشهر لوى ديمونت Louis Dumont الذى درس أحد المجتمعات الصغيرة فى جنوب الهند . وعلى أى حال فالاعتماد متبادل إلى حد كبير جدا بين العلمين . فعلماء الأنثربولوجيا يمدون علم الاجتماع بالمعلومات والوقائع التى يستخدمها هؤلاء فى صياغة نظرياتهم التى يختبرها الأنثربولوجيون بدورهم حين يقومون ببحوثهم الحقلية . واضرب لذلك مثالين : الأول هو نظرية موس التى عرضها لنا فى مقاله الشهير "Essai sur le Don" *Année Sociologique*, 1923—1924) عن التبادل والتى يعتمد فيها اعتمادا كبيرا على كتابات مالينوسكى وخاصة على كتابه Argonauts of the Western Pacific ثم استعانة كل الأنثربولوجيين حتى الآن بهذه النظرية فى تفسير نظم التبادل والهدى بل والزواج فى المجتمعات التى يدرسونها . والمثل الثانى هو دراسة لم تنشر بعد عن الشعائر الجنائزية فى مصر وهى ، تعتمد اعتمادا كبيرا على نظرية فان جنب Van Gennep التى يعرضها فى كتابه *Les Rites de Passage* (شعائر الانتقال أو شعائر المرور) وعلى دراسة هرتز عن الموت Hertz: Représentation Collective de la mort." *Année Soc.* 1905) ولكن كلا من ثنائى جنب وهرتز يقيمان نظريتهما على المعلومات والوقائع التى يستمدانها من الأنثربولوجيين الأوائل ، وهكذا .

ولكن هناك فوارق تُحسب بين الأنثربولوجيا وعلم الاجتماع كما يفهم فى انجلترا وأمريكا مثلا ويمكن تلخيص هذه الفوارق فيما يلى :

(ا) يهتم علم الاجتماع بدراسة مشكلات قائمة بذاتها مثل مشكلة الطلاق أو البطالة ، أما الأنثربولوجيا فتهتم فى المحل الأول بالبناء الاجتماعى ككل كوحدة متماسكة .

(ب) تعتمد الدراسة الاجتماعية فى الأغلب على الوثائق والتقارير والإحصائيات بعكس الدراسة الأنثربولوجية التى تفضل الاعتماد على ملاحظة الباحث المباشرة وتتفوق الإحصائيات .

(ج) النزعة العملية أو الاتجاه نحو الإصلاح أوضح فى الدراسات الاجتماعية ، بعكس الدراسة الأنثربولوجية التى تتوخى التحديد العلمى النظرى فحسب .

SELECT BIBLIOGRAPHY

Evans-Pritchard (E.E.) : *The Nuer. A Description of the Modes of Livelihood and Political Institutions of a Nilotic People* (Oxford, 1940)

: *Social Anthropology* : Inaugural Lecture; (Oxford 1948)

: *Social Anthropology*. (Cohen & West, 1951)

Firth (R.) : *Elements of Social Organization* (Watts & Co., 1951)

Fortes (M.) ed : *Social Structure* : Studies presented to A. R. Radcliffe — Brown: (Oxford, 1949)

: "Analysis and Description in Social Anthropology", *Reprint from The Advancement of Science, No. 38, Sept.* 1953

Kaufmann (F.) : *Methodology of the Social Sciences*, (O.U.P. 1944)

Nadel (S.F.) : *The Foundations of Social Anthropology*, (Cohen & West. 1951)

Pitt-Rivers (J.A.) : *The People of the Sierra* (Weidenfeld & Nicolson. 1954)

Richards (A.I.) : "The Development of Field work Methods in Social Anthropology" in Bartlett and Others (*ed*) : *The Study of Society*, (Kegan Paul. 1946)

Znaniecki (F.) : *The Method of Sociology*. (Rinehart & Co. New York. 1934)